المصرى بسيل من الحفلات والمآدب والمواكب الباهرة ، وأن تأسره بمظاهر جودها الوافر ، وأن تنثر عليه ما استطاعت من آيات البهجة والمرح ، كل ذلك لكى تكسب ولاءه وعرفانه وتأييده ؛ وقد كانت الخلافة الفاطمية تشعر دائما أنها لم تكسب كل ولائه وتقديره ، وان سياستها المذهبية تبث إلى نفسه شيئا من الوحشة والريب ؛ بيد أنه يجب أن نقول من جهة أخرى إن الدولة الفاطمية كانت بحق دولة البهاء والبذخ الواسع ، وكانت هذه الرسوم والمظاهر الرائعة من بعض مظاهر قوتها وعظمتها وغناها ؛ وكانت هـذه الروح الفخمة الباذخة تطبع كل رسومها ومظاهرها ، فى القصر وفى الخارج ، وفى السياسة والدين والادارة ، وفى الحياة العامة والحياة الخاصة ؛ وقد سرت آثار كثيرة من هذه المظاهر والرسوم الفخمة الشائقة إلى كثير من القصور والدول الاسلامية التى تعاقبت على مصر بعد الدولة الفاطمية ؛ وقد نلمس إلى اليوم فى بعض الرسوم والنظم الدينية ، وفى بعض مظاهر أعيادنا ومواسمنا لمحات من آثار البذخ الفاطمى

محمد عبد الله عنان

التعليم والحالة الاجتماعية
فى مصر
للأستاذ اسماعيل مظهر

قرأت فى العهد الأخير تقريرين عن التعليم فى مصر كتبهما عالمان استقدمتهما وزارة المعارف لينظر كل منهما فى ناحية خاصة من نواحى التعليم ودرجاته ، وأفضى كل منهما بآراء ناضجة فيما كلف به من بحث . فكتب مستر مان مفتش المدارس وكليات المعلمين بادارة المعارف بانجلترا تقريراً مدعماً بالاحصاءات فائضاً بالأفكار والنظريات ، وكتب مسيو كلاباريد أستاذ علم النفس فى كلية العلوم بجامعة جنيف تقريراً آخر عمد فيه إلى نظريات حديثة فى علم النفس والتربية لا نعلم مقدار ما فيها من خطأ أو صواب ، لأن الحكم على مثل هذه الأشياء يجب أن يرجع فيه إلى أهل الاختصاص ، وإن كانت النظرة العاجلة التى ألقيتها على هذا التقرير قد أقنعتنى ، وقد أكون مخطئاً ، بأن نظريات كلاباريد ربما تكون قد أسلمت به إلى نتائج لا يؤيدها الواقع ولا تسندها الحقائق التى يعرفها كثير من المصريين معرفة أولية لا تحتاج إلى نظر علمى ولا إلى استنتاج من مقدمات

هـذا إلى أن العالمين الأوربيين إن كانا قد بحثا فى التعليم المصرى كل من ناحية اختصاصه ، فان بحثهما إنما جاء قاصراً على الدائرة التى عينتها له وزارة المعارف وفى ضوء المعلومات التى زود بها ، وفى الحدود التى رسمت للتعليم فى مصر منذ خمسين سنة مضت . فان كانا قد أحسا بشىء من النقص ، أو وقع لهما شىء يستحق النقد ، فانما وقع لهما فيما هو داخل فى هذه الحدود أو مشمول بها . فلم ينظرا مثلا فيما يجب أن يؤدى التعليم فى مصر من حاجات الحياة العامة فيها ، وفى علاقة التعليم بالحالات الجديدة التى تكتنف الحياة المصرية فى تطورها الحديث . على أن هذا لا ينزل من مكانة ما كتب العالمان الفاضلان أو يقلل من قيمة آرائهما . فان المصريين أنفسهم أحق بأن يتلمسوا مكان النقص الذى يحسونه فى التعليم من ناحية علاقته بالحياة عامة ، وبالحالة الاجتماعية خاصة

ومهما يكن من أمر الباحث الأوربى فى الشؤون المصرية ، ومهما يكن من علمه وتمكنه فيه ، فانه من المتعذر عليه كما قال مستر مان فى تقريره أن يلم به إلمام المحيط بالحقائق الأساسية التى يحس بها المصريون أنفسهم من غير استعانة بآراء أو نظريات . ذلك بأن لكل أمة إحساساً بما يعتورها من نقص لن يفقه الغريب عنها شيئاً من خصائصه إلا بالجهد الشديد وطول التأمل والتفكير . مثل ذلك أن التقريرين اللذين وضعهما العالمان الأوربيان لم يلما الحقائق الأولية فى حياتنا الاجتماعية وعلاقتها بالتعليم ؛ ذلك فى حين أن كل مصرى يشعر شعوراً عميقاً بأن عصراً من عصور التطور الفكرى قد آذن بأن تشرق شمسه فى سماء مصر ، وأن عصراً آخر قد أخذ فى الأفول . أضف إلى ذلك أننا نشعر بأن حالاتنا الاجتماعية قد اتجهت فى تطورها متجهاً ألقى على التعليم فى مصر عبئاً جديداً لم يشعر به آباؤنا ، وقد نشعر بعض الأحيان بشىء من القلق ، وقد نشعر بأن هذا القلق قد يتضاعف بعض الأحيان حتى ليذهب بالبعض إلى حد اليأس من

مستقبل آلاف الطلبة الذين يتعلمون اليوم فى المدارس وتخرجهم الكليات زرافات كل عام . بل إننا أخذنا نشعر بكل ما شعر به الأستاذ هنرى جيمس عند ما قال : إن الاحتفاظ بحالة اجتماعية ثابتة الدعائم قوية الأركان فى جمعية يكتب على المتعلمين فيها عيش الفقر والذلة ، لأمر فيه من البعد عن حقائق الطبع البشرى بقدر ما فى محاولتك بناء هرم يرتكز على رأسه لا على قاعدته من بعد عن حقائق الطبيعة الكونية

ولقد عارى مفكر فى أن ذلك الشعور العميق الذى يكتنف تفكير الكثيرين من المصريين إنما له أسبابه الغامضة البعيدة عن ادراك الذين لا يفكرون فى التعليم إلا بقدر ما يفكرون فى أداة تخرج متعلمين ، ولا يزيد خطره فى نظرهم عن خطر آلة تخرج أحذية أو لفافات تبغ فى نظر عامل يجهل حقيقة الآلة التى يديرها ، ولا يعرف عنها إلا أمرين : شكلها الظاهر ، وثمرها الذى يجنيه منها

على أن الثمر الذى أخذنا نجنيه من أداة التعليم عندنا تعجدت عليه ظاهرتان جديدتان : الأولى أن طعمه قد أخذ يتغير ، والثانى أن صنفه أخذ ينحط مع كثرة الانتاج . ولا شك فى أنهما ظاهرتان يعلل بهما كثير من الظواهر الاجتماعية التى تمر علينا فى كل يوم صور منها ، وأخصها كثرة العاطلين من المتعلمين ، والجهد الذى يلقاه المجدون منهم فى تحصيل رزقهم الحلال

ولا ريب فى أن هذه الظاهرات ترجع إلى أسباب أخذت تتجمع منذ أكثر من نصف قرن من الزمان ، حتى أفضى بنا التطور إلى الحالة التى تكتنفنا اليوم . ولما كان الغرض الذى أرمى اليه من نشر هذه المقالات إنما يتجه إلى وصف العلاقة التى تقوم اليوم بين التعليم والحالة الاجتماعية والمهمة الكبرى الملقاة على عاتق التعليم فى تنظيم الحالة الاجتماعية ودرء الأخطار التى قد يتعرض لها المجتمع المصرى بقدر ما فى مستطاع التعليم أن يدرأ منها ، وجب أن أظهر أولا أن أشد الأخطار التى يتعرض لها الكيان الاجتماعى فى مصر من ناحية التعليم أن الشاب المتعلم فى مدارسنا العليا يفقد مع التعليم استقلاله الذاتى ، باعتباره قوة لها حقيقة مستقلة عن القوى الأخرى التى تكتنفها . وقد يشعر بذلك الشاب المتعلم ، وقد يشعر به الذين يعلمون أولادهم ، حتى لقد نجد أن بعض القادرين على التفكير ينظرون نظرة تشاؤم إلى المستقبل القريب ، وإن لهم فى ذلك لحقا ، وإن لهم فى تشاؤمهم لأسبابا تبرره وحقائق تعلله ، ومن أجل أن نظهر تطور الحالات التى أفضت بنا إلى هذه النتائج ينبغى لنا أن نذكر حقائق خمسا نرجع فيها إلى تاريخنا بعض الشىء :

أولا : حكمت مصر منذ أبعد العصور على نظام تباين الطبقات الاجتماعية ، وعلى أساس الفوارق فى الحقوق العامة ؛ غير أن الطبقات أخذت تتقارب حقوقها الطبيعية وتنتقى من بينها الفوارق من عهد قريب ، فالكل الآن متساوون أمام القانون ، ولكل مصرى حق الانتخاب والحكم من طريق مجلس النواب . فأخذ مظهر وجود طبقتين متمايزتين فى الحقوق المدنية يزول شيئاً بعد شىء ، فلقد كانت مصر القديمة مكونة من ثلاث طبقات هم : الحكام والكهنوت والشعب ؛ ومنذ غزو الاسكندر وحكم البطالسة إلى حكم المماليك حتى بدء الاحتلال الانجليزى كانت هناك طبقات تختلف حقوقها وامتيازاتها ؛ أما الآن فقد انتفت هذه الفوارق نظرياً ، ونقول نظرياً لأننا لا نزال نشكو من بعض مساوئها ، بالرغم من أن أصغر فلاح فى مكنته أن يقاضى أعظم عين فى البلاد ، وأن يأخذ حقه منه إن كان له حق

ثانياً : بالرغم من أن نظام الطبقات المتباينة فى الحياة والحقوق هو النظام الذى اتبع فى مصر منذ أبعد العصور ، وبالرغم من أن حالة مصر الاجتماعية من خمسين سنة مضت كانت تكفل الاستقلال المادى لطبقتى ذوى الامتيازات والفلاحين معاً ؛ بأن تحمل طبقة الفلاحين ، وهى الطبقة العاملة ، العبء كله ، بأن تكفى نفسها وتكفى حاجات حكامها بقدر الاستطاعة ، فان الحالة الجديدة ، حالة التساوى أمام القانون فى الحقوق ، قد أحدثت ظاهرة اجتماعية جديدة ، كان سببها أن الفلاح قد خرج من كونه عاملا لا حق له فى ملكية الأرض ، إلى رجل حر له حق العمل متى شاء والانقطاع عنه متى أراد ، وله فوق ذلك حق الملك ، بل نقول إنه انتقل من عامل إقطاعى إلى رجل حر ، فقامت على هذه الحال ظاهرة اجتماعية جديدة

ثالثاً — هذه الظاهرة الاجتماعية الجديدة التي قامت على ر الفلاح المصري وعتقه من نظام الاقطاع الذي ظل خاضعاً طوال القرون ، قد قلب آية الحياة الاجتماعية في مصر . فان ا الفلاح لم يكن بنفسه شيء ليكون مستقلا تمام استقلال في حياته إلا قانون يحميه ، ونظام اجتماعي يجعله يشعر بأنه ا أثر في الحياة ؛ فلما وقع ذلك بالفعل أصبحت الطبقة الدنيا ي طبقة الفلاحين المسخرين التي كان عليها أن تحفظ استقلالها استقلال الطبقة التي تعلوها ، سيدة نفسها ، وأصبحت طبقة ـلاك وأصحاب الجاه كما كانت في الحالة الأولى عبئاً عليها ، لكن في صورة جديدة ، هي صورة أخذت شكل صراع خفي ين طبقتين

رابعاً — ولقد انحصر مظاهر هذا الصراع في طبقة تحررت ن قيود النظام الاقطاعي وهي الطبقة المنتجة العاملة بيدها ، فأصبحت مستقلة بنفسها . وهي طبقة قادرة على الحرث والغرس والحصاد في بلاد لن يزرعها غيرها ، ولن ينتفع بها غيرها ؛ فهي مستقلة ما دامت من فوق الأرض التي يغذيها النيل بشرايينه المحيية ؛ وهذه الخطوة الجديدة أحدثت ظاهرة أخرى

خامساً — عكفت الطبقة الأخرى ، طبقة أصحاب الجاه على مطلب آخر تتقى به النتائج التي تترتب على استقلال الطبقة العاملة ولم تجد من وسيلة أقرب من تعليم أولادها ليكونوا حكام البلاد . ولكن طبقة الفلاحين أخذت تزاحم الطبقة الأولى في هذا المضمار ، فأخذ الأثرياء منهم يعلمون أولادهم ليكونوا حكاما فنجحوا . ولكن بعد أن ملئت الحكومة بما تحتاج من حكام وكتبة قام شعور جديد بأن أولاد موظفي الحكومة والأثرياء الذين أخرجوا أولادهم من محيط الفلاحة الى محيط العلم أقل استقلالا مع تعلمهم من أبناء الفلاحين الجهلاء . وأصبحنا الآن والموقف بين متعلم عاطل يتطلع الى مرتب أبيه أو ثروته ليعيش ، وفلاح جاهل لا عمدة له في الحياة إلا خبرته الموروثة في فلح الأرض وقوة عضلاته ومحراثه وفأسه وماشيته . فهو رجل مستقل تمام الاستقلال في الحياة ، على العكس من المتعلم العاطل . فاذا كانت الغاية من التعليم تخريج رجال مستقلين يكافحون في الحياة كفاح المنتج لا كفاح المستغل لكفاح غيره ، رأينا أن التعليم لم يف ببلوغ الغاية الأخيرة منه ، ما دمنا نرى أن ابن الفلاح بخبرته الموروثة مستقل في حياته منتج بعمله ، في حين أن المتعلم يفقد مع التعليم استقلاله الذاتي ويتطلع دائماً إلى حياة الركود لا إلى حياة الكفاح التي لم يهيء له تعليمه طريقها الواجب

على أن قليلا من التأمل في هذه الالمامة التي ألممنا فيها بأوجه التطور الاجتماعي الذي انتابنا منذ خمسين سنة خلت ، يحمل الفكر على المضي خطوة أخرى في تأملات إذا أحطنا بها نكون قد فرغنا من التمهيد للفكرة التي نريد أن تكون الدعامة التي يقوم عليها أساس التعليم في مصر ، فنرى ما يأتي :

أولا : إن طرق التعليم التي عكفنا عليها إلى الآن شطرت الأمة معسكرين : الأول معسكر المتعلمين على القواعد الأوربية التي اتبعناها في مدارسنا ، وخرجوا بهذا التعليم عن جو ثقافتنا التقليدية ، فأصبحوا نصف مصريين ؛ والثاني معسكر الفلاحين الذين أبعدناهم عن الثقافة الحديثة ، وحافظنا على ثقافتهم التقليدية فصاروا بذواتهم في القرن العشرين ، وبعقليتهم في مصر الفرعونية

ثانياً : كونّا بهذا طبقتين غير متجانستين ، بل مختلفتين تمام الاختلاف ، بحيث لا تجمع بينهما من رابطة إلا الرابطة الطبيعية التي هي رابطة الدم ؛ فكنا في ذلك أشبه بالمستعمر الذي يرغب دائماً في أن يزيد من الصدوع التي تفصل بين طبقات الأمة ، لا أشبه بالمصلح الذي يعمل دائماً على أن يرأب تلك الصدوع ويقرب بين الطبقات حفظاً للتوازن الاجتماعي . ولا شك في أن هذه السياسة تؤدي بطبعها ، وعن غير قصد ، إلى حرب الطبقات التي نحن مقدمون عليها حتماً إذا استمر التعليم على نماذجه الحاضرة وأخذت تلك الصدوع والفوارق تزيد عاماً بعد عام

ثالثاً : دليلنا على هذا أن ابن الفلاح إذا أثرت فيه الثقافة الحديثة ، سواء أكان تعليمه في مصر أم في إحدى جامعات أوربا ، أصبح لا ينشق في جو بلاده نسيم الثقافة التي نشأ فيها ، فنلحظ فيه روح التبرم بأبيه الفلاح وأمه الفلاحة ، وتأنس فيه نزعة قدعة تدفعه دائماً إلى حب العودة إلى الجو الذي نشأ فيه ، فتراه قلقاً غير مستقر ، هداماً لا بناء ، يريد لو تتاح

له الفرصة ليعود إلى الجو الذى كان فيه ؛ فاذا أعيته الحيلة ، كما يحدث دائماً ، واضطر إلى البقاء فى جو بلاده ، هجر الريف ، مرباه الأصيل ومرعى آبائه وأجداده منذ قرون طويلة ومنشأ تقاليده منذ أزمان لا تعيها الذكريات ، ليسكن فى مدينة من المدن ، فيفضلها مع عيش الفقر والعوز على الريف مع عيش الراحة والهناءة ؛ وتراه ينزع إلى البطالة فى مدينة دون العمل الذى هو أجدر بحياة الرجولة فى الريف . ومن هنا تتكون الطبقات المتبرمة بالحياة ، العاملة على الهدم دون الاصلاح ، النزاعة إلى الأفكار المتطرفة والثورات . أولئك الذين عناهم العلامة هنرى جيمس فى كلمته التى سقناها من قبل

رابعاً : وأنت أينما وليت وجهك رأيت أثر المعسكرين اللذين كونهما التعليم المصرى ظاهراً جلياً . فأنت تنتزع الولد من حضن أبيه الفلاح وأمه الفلاحة ، فكأنك تنزعه من حضن « مصر الفرعونية » ، لتنشئه فى حضن « مصر الأوربية » ، وتخرجه بعد ذلك قاضياً أو محامياً أو مهندساً أو تاجراً أو رجل إدارة أو غير ذلك ، ولكن بروح أوربية تكسوها ثياب مصرية شفافة ؛ وبالأحرى تخرج رجالاً انبتت صلتهم بتقاليدهم الثقافية القديمة . وأنت فى دور العدل وفى المتاجر وفى مراكز الأدارة وفى عيادة الطبيب ومكتب المهندس ، واقع فى كل دقيقة على مظهر من مظاهر التفرقة بين المعسكرين . فالفلاح البعيد عن مدنية المدن ، وبالأحرى البعيد عن جو الثقافة الأوربية الذى نشأ فيه القاضى والمحامى والتاجر ومأمور المركز ومعاون الادارة وطبيب القرية ، يمثل معسكر مصر الفرعونية ؛ أما هؤلاء فانما يمثلون « مصر الأوربية » ، ولا شك فى أن هذا مظهر من مظاهر الانحـــلال الاجتماعى ، لا يسأل عنه فى مصر شىء بقدر ما يسأل التعليم

خامساً : بالرغم من أن المتعلم قد نزع بفكره نزعة أبعدته عن ثقافة آبائه التقليدية ، فقد أثرت تلك الحال فى مزاجه وتصوراته ونظرته الفنية فى الحياة ، تلك النظرة التى يجب أن تكون مصرية صميمة ، ويجب أن نحافظ عليها نقية على سجيتها لنكون مصريين جديرين بالمصرية ، وكان من نتائج هـذا أن المتعلمين يفضلون أقذر قرية أوربية على ريفنا الجميل وبحيراتنا الفاتنة ، حتى لقد كادت تقوى النزعة الأوربيـة فينا على وحى النيل نفسه والسبب فى هذا أننا كنا خلال الخمسين عاماً الماضية كالنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، إذ انتزعنا من أرواح ناشئتنا « مصريتها » ، ولم نترك فيها من المصرية إلا لون البشرة ولقحناهم بالروح « الأوربية » فلم نبق مصريين كأهل الريف ولم نستطع أن نكون أوربيين كفتيان « بيكادلى سركس »

سادساً — بدأت هذه الحال تؤثر فى مرافقنا الحيوية حتى لقد نزعنا إلى القول بأن كل ما هو أوربى جميل ، وكل ما هو مصرى ردىء ؛ وكل فكرة مصرية لعب ولهو ، وكل فكرة أوربيـة جد ورجولة ؛ وكل فن مصرى بدائى وغير متفق وروح العصر ، وكل فن أوربى بهما كان فيه من بعد وتضاد مع نزعاتنا وتقاليدنا المصرية بل ومع آدابنا المرعيـة والمثل الانسانى ، حضارة وتمدين ؛ وشملت هذه الحال فتياتنا وفتياتنا فألسنتهم لا تتحرك إلا بكل ما هو أوربى غربى ، وقلوبهم لا تهفو إلا لكل ما هو بعيد عن المصرية

ولا شبهة فى أن المعسكرين يتهيآن الآن : الأول للعمل فى خراب الريف ، والثانى لا حول له ولا قوة ، فسوف ينهزم ليترك الريف خراباً . وإنما يخرب الريف بخراب القلوب التى يجب أن تؤمن بأن الريف هو مصر ، وأن مصر هى الريف ، وأن المدن أسواق لذلك الريف لا أقل ولا أكثر . إنما يخرب الريف بأن نحب المدينة ونهجر الريف ، فكأننا هجرنا مصر . ولا مخرج لنا من هذا إلا بأن نصل ثقافتنا الحديثـة بثقافتنا التقليدية فيكون المصرى فلاحاً مصرياً روحاً ونزعة وخلقاً ، ثم قاضياً ومحامياً وطبيباً ورجل إدارة من بعد ذلك . يجب أن تكون ماهيتنا مصرية وأعراضنا أوربية ، لا أن نعكس الآية بأن نعمد أولاً على محو مصريتنا ، فاذا تم لنا ذلك رحنا نتيه بأننا أتينا بأعراض أوربية ولقحنا بها ذوات لا ماضى لها ، وبالأحرى لا ماهية لها

تلك مقدمات لا بد منها إذا أردنا أن نبحث حالتنا الاجتماعية من جهة علاقتها بالتعليم . وسنرى فى البحوث التالية كيف يمكن أن نستفيد منها

اسماعيل مظهر